١_ طريقة القواعد والترجمة

تعد طريقة القواعد والترجمة من أقدم طرائق تعليم اللغات الأجنبية المعروفة، ولا يعرف تاريخ محدد لنشأتها ومراحل تطورها. وكل ما يعرف عنها أنها طريقة تقليدية قديمة، نشأت منذ ظهرت الحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية وتعليمها. ويرى كثير من الباحثين أنها كانت تستعمل قديما في تدريس لغات ذات حضارات قديمة، كالصين والهند واليونان.

كما يرى فريق آخر أنها تعود إلى ما بعرب بعصر النهضة في أوروبا، حيث نقلت اللغتان اليونانية واللاتينية التراث الإنساني المكتوب بلغات شتى إلى العالم الغربي، وبعد توثق العلاقات بين مختلف البلاد الأوروبية، شعر أهلها بالحاجة إلى تعلم كلا اللغتين، واتبع في ذلك الأساليب التي كانت شائعة في تدرسي اللغات الثانية في العصور الوسطى في البلاد الأوربية.

وعرفت هذه الطريقة في الولايات المتحدة الأمريكية في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تحت أسماء مختلفة، كالطريقة البروسية The Prussian Method، والطريقة الشيشرونية The Ciceronian، بيد أنها شاعت باسم طريقة القواعد والترجمة في الثلاثينيات من القرن العشرين.

وسميت هذه الطريقة بطريقة القواعد والترجمة لأنها تهتم بتدريس القواعد بأسلوب نظري مباشر، وتعتمد على الترجمة من اللغة الأم وإليها؛ حيث يتم التدريس باللغة الأم وتترجم إليها القواعد والكلمات والجمل، وقد يكون سبب التسمية هو أن تدريس القواعد غاية في ذاته، باعتبار أنه هو اللغة، أو أنه وسيلة لتنمية ملكات العقل وطرائق التفكير، كما أن الترجمة من اللغة الهدف إلى اللغة الأم هي الهدف الرئيس من دراسة اللغة.

حيث يمكننا القول أنه "يرجع البدء في استخدام هذه الطريقة في أوروبا إلى بداية أواخر القرن الثامن عشر، إلا أن لها تاريخا بعيدا في تعليم العربية لغير الناطقين بها. حيث انتشرت مع انتشار الإسلام وكان محور العمل في الجهود الذي بذل لتعليم اللغة. ولعل شيوع هذه الطريقة في بلدان جنوب شرق آسيا وفي جنوب إفريقيا أيضا شاهد على قدم هذه الطريقة فمحور الاهتمام في تعليم العربية فيها هو تحفيظ الطلاب بعض سور القرآن الكريم وشرح معاني المفردات فيه ثم شرح القواعد النحوية التي تسهم في فهم التراكيب".

٢_ أهداف الطريقة

_ الهدف الرئيس من تعليم اللغة الهدف هو تمكين الدارسين من قراءة النصوص المكتوبة بها، والاستفادة من ذلك في التدريب العقلي، وتنمية الملكات الذهنية، وتذوق الأدب المكتوب والاستماع به، مع القدرة على الترجمة من اللغة الهدف وإليها.

_ النظر إلى اللغة على أنها حفظ القواعد النحوية والصرفية بالتفصيل، مقرونة بالاستثناءات والشواذ من الأسماء والأفعال والصفات، مع قائمة بالكلمات والمصطلحات المرتبطة بها.

_ يعد حفظ المفردات وفهم معناها من خلال الترجمة من أبرز مقومات تعلم اللغة الهدف، بعد حفظ القواعد.

_ ضرورة تعرف الطلاب على خصائص اللغة الهدف، ومقارنتها بغيرها من اللغات، وبخاصة اللغة الأم للطالب، ولذا يصرف المعلم معظم وقته في الحديث عن اللغة، بدل الحديث بها.

_ الاهتمام بالقراءة، مع القدرة على الكتابة التقليدية من خلال التدريب على الترجمة من اللغة الأم إلى اللغة الهدف، وعدم الاهتمام بمهارتي فهم المسموع والكلام. ومن النادر أن يسمع الطلاب حديثا أو حوارا أو نصا مقروء بلغة سليمة، سوى ما يقرؤه عليهم المعلم من الكتاب المقرر، وغالبا ما يكون المعلم غير ناطق باللغة الهدف، مع قلة الاهتمام بالنطق السليم لأصوات اللغة ومفرداتها.

_ التأكيد على الصحة اللغوية في القواعد والإملاء والترجمة الدقيقة، وقلة الاهتمام بالكفاية اللغوية.

_ الاهتمام بالنصوص الأدبية الراقية في المراحل المبكرة من التعلم، والنظر إليها على أنها مادة للتدريب على التحليل النحوي، لا محتوى للدخل اللغوي المفهوم أو وسيلة لاكتساب اللغة.

_ اختيار المفردات وفقا لورودها في النصوص المقروءة، والحرص الشديد على فهم كل كلمة في النص من خلال الترجمة، من غير نظر لمعايير الشيوع أو التدرج أو الحاجة إلى هذه الكلمات في الاتصال، ثم وضعها في قوائم مقرونة بتصريفاتها ومشتقاتها والحرص على حفظها معزولة عن سياقاتها.

_ الاهتمام الكامل بالكتاب المقرر واستقصاء ما فيه من قواعد ونصوص وتدريبات، وعدم الخروج عنه أو الاستعانة بغيره.

_ حصر التدريبات في ترجمة كلمات وعبارات وجمل غير مترابطة، من اللغة الأم إلى اللغة الهدف والعكس.

_ حصر وسائل التقويم في اختبارات المقال، تلك الاختبارات الذاتية غير الموضوعية، التي تقيس حصيلة الطلاب من المفردات والقواعد الواردة في الكتاب المقرر، ولا تعطي صورة عن كفاية المتعلم في اللغة الهدف.

_ الإيمان بأن الطالب لا يمكن أن يتعلم اللغة الهدف باللغة الهدف، وإنما يتعلمها من خلال اللغة الأم، وأن اللغة الأم مرجع أساس في ذلك.

_ قلة الاهتمام بإعداد المعلمين وتأهيلهم وتدريبهم، ما داموا يتقنون اللغة الهدف، ويتحدثون اللغة الأم للمتعلمين.

٣_ وظائف كل من المعلم والمتعلم والمواد التعليمية

أ_ وظائف المعلم

وظيفة المعلم في ضوء هذه الطريقة ثانوية، رغم أنه قد يبدو سيد الموقف داخل حجرة الدرس. فمهمته تنحصر في تدريس الكتاب المقرر، وشرح جميع محتوياته بالتفصيل، وترجمتها إلى اللغة الأم، وليس له دور يذكر في اختيار الكتاب، أو الحذف من موضوعاته أو الزيادة عليها، ومن ث لا يستطيع تغيير طريقة التدريس أو التعديل فيها. وهذه الطريقة لا تكلف المعلم شيئا، ولا تتطلب منه جهدا يذكر في التحضير للدرس، ما دام يتقن اللغة الهدف ويعرف اللغة الأم للمتعلمين.

ب_ وظائف المتعلم

أما المتعلم فلا حول له ولا قوة، يتحمل عبئا كبيرا من غير فائدة تذكر، حيث يستمع معظم الوقت إلى شرح المعلم، ويدون ما يسمعه في مذكرة خاصة أو على حواشي الكتاب المقرر بلغته الأم، وليس لديه قدرة ولا فرصة لمناقشة المعلم أو الحديث مع الزملاء باللغة الهدف، فضلا عن صعوبة إبداء الرأي أو تقديم المشورة فيما يتعلق بالكتاب أو طريقة التدريس.

جـ_ وظائف المواد التعليمية

يحتوي المنهج الذي تتبع فيه هذه الطريقة، على كتابين: أحدهما للقواعد النحوية الصرفية، والآخر للقراءة، ولا يسمح بالخروج عنهما إلا في حدود ضيقة، لأن المطلوب من المعلم أن يشرح جميع محتويات الكتاب المقرر بالتفاصيل، وعلى الطلاب أن يحفظوا أكبر قدر ممكن من الكلمات والنصوص الأدبية، مع ترجماتها إلى اللغة الأم.

٤_ ما يؤخذ على طريقة القواعد والترجمة

قلنا سابقا أن طريقة القواعد والترجمة لم تعتمد علة نظرية أو مدخل، هذا ما جعلها عرضة لبعض الانتقادات نذكر منها النقاط التالية:

١- التركيز على مهارتي القراءة والكتابة وإهمال الفهم، وقلة الحديث باللغة الهدف وسلامة النطق، كل ذلك لن يؤدي إلى بناء كفاية لغوية سليمة في بقية المهارات. لأنها تهتم بتعليم القواعد نظريا.

٢- التدريس بهذه الطريقة غالبا ما يقود إلى تدخل أنظمة اللغة الأم للمتعلم في أنظمة اللغة الهدف، وقد تستمر هذه المشكلة مع المتعلم، وقد يصعب عليه التخلص منها، لأنه تعود على التفكير بلغته الأم.

٣- يصعب على الطالب الذي تعلم بهذه الطريقة في الغالب إنتاج جمل سليمة وطبيعية، أي يصعب عليه إنتاج جمل صحيحة لغويا ومقبولة اجتماعيا، لأنه تعلم اللغة بطريقة نحوية متكلفة.

٤_ ليس لدى معلم اللغة بهذه الطريقة محفز للإبداع والتنويع في الأنشطة، لأنه مكبل اليدين غير قادر على الاجتهاد والتطوير.

٥- الطالب في الصف سلبي بحيث يتلقى الشرح والإملاء، فيكتب ويترجم ويحفظ.

٦- اهتم أصحاب هذه النظرية بالصحة اللغوية، ولم يقدموا شيئا لبناء الكفاية اللغوية، لأن المحتوى لا يناسب الطلاب ولا يرتبط بدوافعهم ولا يلبي حاجاتهم ورغباتهم.

٧- الاهتمام الزائد بالقواعد الصرفية والنحوية من الناحية النظرية، وتقديمها للطلاب بالأسلوب الجاف المباشر، الذي يبدأ بتقديم القاعدة، ثم ذكر الأمثلة عليها من النص المقروء، وحصر التطبيقات في الأمثلة المحفوظة المكررة،

٨- الاعتماد على ما يقدم في حجرة الدراسة، وعدم الاختلاط بأهل اللغة أو سماع اللغة ورؤيتها من خلال الأفلام الحية.

٩- لا تصلح هذه الطريقة لتدريس اللغة الأجنبية للأطفال، لأنهم في المراحل الأولى لا يدركون كثيرا مما يقدم فيها من مصطلحات وكلمات وعبارات نحوية وصرفية، حتى ولو كانت بلغتهم الأم.

١٠- لا توجد مراعاة للفروق الفردية في هذه الطريقة، فقد يستفيد منها الأذكياء أو الذين يميلون إلى التحليل والتجريد، أو الذين لديهم معرفة سابقة بقواعد اللغة الهدف، ويحرم منها المتوسط أو الأقل ذكاء.

١١- غياب التعزيز الفوري الذي ينتج غالبا عن النجاح في استخدام اللغة؛ نتيجة الانشغال بالترجمة التي تسبب بطء في الفهم وبالتالي فشل تحقيق التواصل السريع.

٥_ من إيجابيات طريقة القواعد والترجمة

١_ قد تكون هذه الطريقة مناسبة للأعداد الكبيرة من الطلاب، حيث لا يستطيع الجميع المشاركة الفعلية في الفصل ولا التفاعل مع المعلم ولا الحديث مع الطلاب، مما يجعلهم في حاجة دائمة إلى الكتاب والمقرر، وإلى تدوين ما يسمعون من المعلم.

٢_ التركيز على القواعد قد يفيد من هم في المراحل المتقدمة من دراسة اللغة، وفقد تكون هذه الطريقة مهمة للمتخصصين في اللغويات أو في تعليم اللغات الأجنبية والثقافات.

٣_ هذه الطريقة قد تكون مفيدة عندما تكون الحاجة ماسة إلى تعلم مفردات وعبارات وجمل لأغراض خاصة، سواء أكانت هذه الأغراض دينية أم علمية أم سياسية.

٤_ يكون اللجوء إلى هذه الطريقة عندما يكون الهدف من تعلم اللغة هو القدرة على القراءة باللغة المراد تدريسها، أو التعود على الكتابة العلمية المتخصصة، دون الحاجة إلى الاتصال الشفهي.

٥_ يستفاد من هذه الطريقة في حالة التعلم الذاتي، وبخاصة عندما يكون المتعلم بعيدا عن الناطقين باللغة الهدف.

٦_ عدم استناد هذه الطريقة إلى نظرية أو مدخل ساعدها في التحرر من بعض القيود والإجراءات التي قيدت كثيرا من الطرائق.

٧_ أخيرا دلت كثير من الشواهد على أن كثيرا ممن تعلموا بهذه الطريقة كانوا أقدر من غيرهم على القراءة باللغة الهدف، والكتابة أحيانا في مراحل مبكرة من تعلم اللغة. كما دلت أيضا بعض الشواهد على أن من تعلموا بهذه الطريقة كانوا أقدر من غيرهم على الترجمة.

٦_ ختاما

يمكننا القول بأن طريقة القواعد والترجمة وصفت بأنها "طريقة كتاب الطبخ cookbook method حيث تعتبر القواعد بمثابة وصفة recipe، والمفردات الجديدة بمثابة المكونات ingredients، وترجمات الجمل المكتوبة بمثابة الكعكة cakeK".